آبار منطقة وادي الذهب
بين التسمية والخصوصية

الباحث السالك حبادي
تحت إشراف أ.د محمد الخداري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة القاضي عياض مراكش

ملخص

يهدف هذا المقال الى سبر أغوار طبونيميا الآبار بمنطقة وادي الذهب، والتي ستساعدنا في استجلاء وفك تشفير أسماء الآبار على اعتبار أن الطبونيميا مصدرا وخزانا للمادة التاريخية والجغرافية، في علاقتها بالتاريخ البشري والجغرافي، وضبط مفاهيم الأماكن بالمجال المحدد. ومن هذا المنطلق سنحاول تسليط الضوء على أسماء بعض الآبار والتأصيل لها من أجل رصد التجذر التاريخي للإنسان الذي عاش على أديم هذه الرقعة الجغرافية ووسم أعلامها الجغرافية والبشرية بتسميات ما تزال شاهدة على تاريخه وحضارته، وشاهدة على خصوصية الهندسة المائية بالمجال الصحراوي وتفرد أنماط استنباط الماء.

الكلمات المفاتيح: الطبونيميا، الأعلام البشرية، الأعلام الجغرافية، الآبار، استنباط الماء، وادي الذهب.

مقدمة

تعدّ الطبونيميا من الآليات الضرورية للبحث الأكاديمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية، لكونها تنفتح على عدة حقول معرفية لابد للباحث من الالمام بها، ولعل أهمها علم التاريخ واللسانيات والانثروبولوجيا؛ إذ لا يمكن فهم أسماء الأماكن دون مقاربتها مقاربة شمولية من جميع النواحي، فأغلب أسماء الأماكن وأسماء الأعلام تحفظ دلالات تاريخية، يرجح أن ما طرأ عليها من تغير في النطق مؤشر على تعرضها للتحريف مع توالي الفترات التاريخية. ومن هذا المنطلق سنتطرق لطبونيميا بعض الآبار بمنطقة وادي الذهب على اعتبار أن هذه المنطقة عرفت استقرارا بشريا، وشهدت عبر تاريخها تحولات اجتماعية كانت من عوامل الانصهار الذي عرفته القبائل المتنقلة التي ما زال البعض منها مستقرا بالمنطقة. ومن الطبيعي جدا أن لكل منطقة جغرافية أسماء أعلامها التي ما تزال شاهدة على تجذرها التاريخي وارتباطها بالأرض، وعلى هذا الأساس فكل تسميات الأعلام الجغرافية لها علاقة بلغة المجتمع البشري الذي سكن المنطقة وأطلق عليها تسميات وأسماء؛ إلى حد أنها أحيانا تكون مستمدة من شكل أعضاء الإنسان أو الحيوان في تشبيهها أو منظرها في الطبيعة.[1] سنتطرق في هذا المقال إلى عينة من الآبار بمجال وادي الذهب، وسنحاول النبش في دلالات تسمياتها ورصد العلاقة بين البئر كمنشأة مائية وبين الطوبونيميا بالمجال. **فما مميزات البئر الصحراوي؟ وما خصوصية استنباط الماء بالمجال؟**

أولا– مميزات البئر/"البير" بالمجال الصحراوي

عند الحديث عن الآبار في الصحراء، فإننا نشير إلى تلك الحفر والثقوب السطحية أو الأنفاق العمودية أو المنشآت المائية التي توصل إليها الإنسان عبر العصور للتحكم في المياه الجوفية، فساعدته على تأمين موارده في هذه المادة الحيوية. تشكل الآبار النقط الحيوية في الصحراء، فهي عصب الحياة لما كانت ضرورية لتوفير الحاجة من الماء للإنسان والماشية (أي القطيع وخاصة الإبل والغنم والماعز) ونصب الخيام والاستراحة من عناء السفر، فكانت هذه المراحل تحمل غالبا اسم البئر أو الحاسي وعلى سبيل المثال نجد (البير لحلو) [2] وبئر أنزران وبئر كندوز وغيرها. وقد ورد ذكر بعض الآبار بالمنطقة المدروسة في المصادر الوسيطية ارتبطت بمسالك التجارة القفلية الصحراوية بتخوم المنطقة. ومنها ما وصفه حسن الوزان طريقة بناءها في معرض حديثه عن الصحراء والطرق التجارية بها، حيث كانت هذه الآبار مكسوة من داخلها بجلد الإبل أو مبنية بعظام الجمال.[3] كما ورد ذكر البعض منها في الكتابات الكولونيالية الاسبانية ومذكرات الضباط الفرنسيين الذين زاروا المنطقة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.[4]

تعد الآبار من الأنظمة المائية الدقيقة التي تتطلب خبرة ودراية في استنباطها وهي من أهم المصادر المائية التي يمكن أن نتحدث عنها في الصحراء رغم قلتها وتوزيعها غير المنتظم، فندرة الماء من أكبر المعضلات التي يواجهها المجال الصحراوي. وبالرغم من ذلك فقد تكيف الإنسان الصحراوي مع الشح المائي حتى صار يضرب به المثل،[5] فعند حديثنا عن المنطقة المدروسة من خلال الرحالة الإسبان الذين زاروا المنطقة خلال فترات تاريخية متلاحقة،[6] فقد وصفوها بالصحراء القاحلة التي لا ماء فيها ولا أودية ولا أنهار و وصفوا مناخها بالحار والجاف،[7] لكن مع هذا الشح المائي فقد شيد الإنسان القاطن بالمجال منشآت مائية أهمها الآبار، وظل يعتمد عليها لسد حاجياته الضرورية من شرب وتوريد لمواشيه، كما لعبت هذه الآبار دورا هاما في المجال المدروس في علاقتها بالقبائل التي تقطن المجال وتنتجع فيه للبحث عن الكلأ والماء لمواشيها، فارتبطوا بها ارتباطا شديدا وأقاموا التجمعات السكنية بالقرب منها إن لم نقل نواة حضرية،[8] إذ تعتبر هذه الآبار مفتاح خريطة في ذاكرة البدو الرحل، الذين يجوبون المجال من أقصاه إلى أقصاه. كما يمكن القول أن تسميات الآبار تنحدر من فترات تاريخية أهمها الفترة المرابطية، ودليلنا على ذلك هو تسمياتها الصنهاجية التي ما زالت طوبونيميا المجال تحتفظ بها، بالإضافة إلى الإشارات التي تضمنتها بعض المصادر الوسطية.[9] ويبدو أن اختلاف التسميات التي تحملها آبار وادي الذهب، تعود لعوامل ثقافية أهمها التفاعل بين اللغة والمجال الجغرافي؛ إذ يطلق سكان المجال مثلا وصف "القلب" على الجبل للشبه الطبيعي، ووصف الخنفرة على الكدية التي تظهر للناظر من بعيد على شكل أنف، وغير ذلك من أطراف الجسد، وقد تبين من خلال البحث عن أصل تسميات بعض الآبار بمجال وادي الذهب، والتي منها ما يتخذ تسميات صنهاجية،[10] والبعض الاخر بلهجة محلية حسانية وغالبا ما يكون مرتبطا بشكلها أو طعم مائها أومدى غورها. كما توجد آبار تستمد تسمياتها من بعض الأعلام الصوفية من أهل الصلاح القاطنين بجوارها كبئر الشيخ المامي، أو ممن كان يقوم بحراستها كـ "حاسي معطى الله"، أو كالذي حفرها مثل بئر كندوز، وغيرها من الآبار المشهورة بالمنطقة المدروسة.

ثانيا– خصوصية استنباط الماء بالمجال الصحراوي

دأب الإنسان الصحراوي القاطن بالمجال على الاهتمام بحالاتِ الطقس طوال السنة، لضرورةٍ تفرضها باستمرار مقتضيات التدبير الرعوي والانتجاع، ولا شك أن الريافة كانت من أهم الوسائل المعتمدة في استنباط المياه الباطنية وكذلك في رصد التساقطات المطرية. وتدخل هذه الوسيلة ضمن ما يمكن تسميته التنبؤاتِ المائية والمناخيةَ، والتي تشكل تمظهرا من تمظهرات الثقافة الحسانية في شقها اللامادي، إذ تعكس نباهة الإنسان الصحراوي ورجاحة فطنته في التعامل مع إكراهات المجال الصحراوي، حيث إنَّ هاجسه الوحيد تتبع وترقب حالاتِ المناخ على مدار الفصول الأربعة، لِما يمثله ذلك من ضرورة حتمية في ضبط إيقاع الخط الرعوي والشح المائي إذا ما وضعنا في الحسبان أهمية الرتعة في نواميس البدو حِلا وترحالا.

إن عملية استنباط الماء عن طريق الآبار كانت سائدة عند سكان المنطقة، بحيث حظيت هذه الأخيرة بنصيب كبير من الاهتمام لمالها من نفع عام وخاصة في مجال تندر فيه المياه.[11] وبالرغم من الأهمية التاريخية لعملية استنباط الماء بالصحراء الا اننا لا نتوفر على معلومات شافية تحفظ

التراث المائي الصحراوي، ويرجع ذلك لعدة أسباب لعل أهمها طابع الترحال الذي ساد في الصحراء، حيث أكّد كليمانتي أن هذا الطابع: « **حال دون توفر معلومات حول تاريخ السكان مع غياب وثائق مكتوبة وانعدام منشآت معمارية** » .[12] ومن جانب آخر أشار إلى الدور الجوهري الذي لعبته التجارة القفلية في وجود الآبار بمفازات واد الذهب، حيث انتشرت بالطرق التي تربط بين واحات باني ومدينة آودغشت جنوبا.[13]

لم تذكر لنا المصادر التاريخية عن المنطقة أي إشارة عن حرفة البيّار أو الأبّار أي حافر البئر كما هو معروف عند مناطق الشمال من المملكة، ولهذا فالرواية الشفوية تذكر لنا أن عملية حفر الآبار كان يقوم بها رجال مختصون من بعض القبائل، أما عن آبار منطقة وادي الذهب فالشائع بين قبائل المجال إجماعها على أن قبيلة أهل بارك الله حفرت أغلبها، في حين نجد رأيا آخرا يقول إن هذه الآبار تعود للفترة المرابطية، وبأن القبيلة المذكورة – أهل بارك الله – لم تحفرها وإنما قامت بإعادة ترميمها والاستيطان من حولها لفترات طويلة.[14]

ثالثا– لمحة تاريخية عن أهم آبار وادي الذهب

يمكن القول إنّ آبار المنطقة شيدت حسب فترات تاريخية لم تحددها المصادر المكتوبة عن المنطقة بتاريخ محدد، فخلال الفترة الحديثة نجد آبار و أوشال تيرس التي حفرتها قبائل استوطنت المجال وأشهرها قبيلة "**أهل بارك الله** "المعروفة بحفر الآبار و ترميمها، والبعض الآخر من هذه الآبار حفرت خلال الفترة الاسبانية وهي قليلة، اللهم إلا بعض الآبار العميقة التي خلفتها سلطات الاستعمار الاسباني، والتي لم يكن القصد منها التنقيب عن الماء بقدر ما كان القصد هو التنقيب عن النفط والبترول،[15] وقامت بغلق الكثير منها والاكتفاء بالبعض منها لرصد تحركات القبائل الرحل بالمجال و التحكم في ديناميتهم،[16] ولهذا فالآبار أو ما يعرف محليا "بالحسيان" شكلت عبر تاريخ المنطقة نقطا حيوية في المنطقة بالدرجة الأولى.[17]

من هذا المنطلق قمت بجرد البعض منها وصنفتها حسب شهرتها، فمنها من تعدى اسمه مجال قطر البئر الضيق، كممر للقوافل التجارية، ومنها من شهد نزاعات بين القبائل الكبرى، بل منها ما أصبح يحمل في الوقت الراهن اسم جماعة حضرية سميت به كإقليم أوسرد المسمى على أكبر بئر وأهمها بمنطقة وادي الذهب. وفيما يلي نأتي على ذكر أسماء بعض أهم الآبار بالمنطقة وإن كانت عديدة:

✓ **بئر انزران**[18]: تقع بناحية "النكجير"جنوب خط عرض أربعة و عشرون درجة، إتستوحي اسمه من نبات يدعى محليا بـ "زاران" ولا ينبت إلا بالأودية وهو دليل على وجود المياه الباطنية، على الرغم من وجود دلالات أخرى لتسمية أنزران، فمثلا بئر انزران بالأمازيغية يعني بئر الأمطار، جمع أنزارْ وهو المطر، وربما سميت كذلك لأنها كانت تُملأ بماء المطر، ولعل هذا المعنى أقرب الى الصواب، بل يذهب آخرون إلى اعتبار الاسم يعود إلى شخصية إسبانية تحمل اسم "زاران"، لم تحتله القوات الاسبانية إلا سنة 1937 أي بعدما كان قد مر على تواجدها نصف قرن بالمنطقة، ووقعت عنده معارك مهمة تذكر لنا المصادر أن به مدينة لم تعد حاليا و أصبح بالقرب من البئر ثكنة، فكان ذلك مدعاة لإطلاق اسم بئر انزران على عدد كثير من الساحات والمؤسسات المغربية.[19]

✓ **آوسرد**[20]: اوسرد من الفعل سورذْ، وأوسورْذْ هو المكان المنبسط الذي لا ينبت زرعا، يعد من أهم نقاط الماء بوادي الذهب وهو يوجد معزولا في نقطة عبور أساسية لطرق القوافل القادمة من الجنوب والشرق، وهو بئر كبيرة وفمها واسع ومياهها غزيرة صالحة للشرب ويمكن أن يرفع منه الماء بثلاثة دلاء في نفس الوقت، يقع بجانبه جبل كبير ومن الملاحظ أن البئر سمي على إسم الجبل.

✓ **تاكرزيمت**: أصلها تاگلْزيمْتْ وهي الفأس الصغيرة (إبدال اللام راء كما هو معمول به في بعض المتغيرات الأمازيغية، و هي تسميته من أصل صنهاجي وتعني بالأمازيغية بالمعنى التقريبي أنها من الأدوات التي تحفر بها البئر وتشبه ما يعرف في اللهجة الدارجة بـ"العتلة" أو الفأس الصغير، أيضا نجد هذه التسمية تعني اللبؤة أي تكرزيمت بالأمازيغية وفي المقابل نجد نبات أخر ينبت بجانبه يسمى محليا بالكرزيم وهو من النباتات المائية المعرفة بالمنطقة وقد يكون هذا أقرب الصواب، وهي بئر تقع في آخر مرتفعات أكركر من جهة الشمال، ويسقى منه الرحل أثناء ظعنهم نحو الجنوب، ومياهه ليست كثيرة وبها ملوحة زائدة.

✓ **اجريفية**[21]: تقع على الطريق الرابط ما بين العيون والعركوب في منتصف الطريق، وهي نقطة عبور للرحل الذين ينتجعون مراعي إيمريكلي الأبيض، مياهها وافرة وتصلح للشرب،[22] تم حفرها في مرحلة الاستعمار الإسباني في الستينات من القرن الماضي من طرف شركة أمريكية كما أو ردت ذلك الرواية الشفوية وهو في أقصى شمال منطقة وادي الذهب حيث لا يتجاوز ملوحته 3 غرامات للتر وهو من أهم الآبار بالمنطقة التي كانت أهم مصدر للمياه حيث كانت تعتمد عليها القبائل زمن الترحال، كانت قوة دفعه قوية في البداية إذ كان يعلو عدة أمتار كالعمود في الهواء غير أنه بعد مدة أصبح يتناقص شيئا فشيئا حتى أصبح اليوم يطفو على وجه الأرض كعين جارية، وقد اشتق اسمه من جرف قريب من البئر .

✓ **جلوى**: بئر قديم يقع شرق بير كندوز على بعد 125كلم، من أشهر الآبار بالمنطقة ورد ذكره في العديد من قصائد الشعراء بالمنطقة، سمي بهذا الاسم للدلالة على شجرة كانت بجانبه، والواقع أن جلوى إسم شجرة كما تدل على ذلك رواية نقلها محمد عبد الله ولد البخاري ولد الفلالي في كتابه "العمران" متحدثا عن شيخه الشريف محمد بن الشيخ سيدي محمد التيشيتي: « **ثم قام الشيخ محمد وصليت معه الظهر تحت الشجرة التي لا جنس لها في ذلك الشجر المسماة جلوى** ».[23] الشاهد هنا أن الشجرة ليست من أشجار المنطقة ولا ندري هل هي سابقة على البئر بالمجال أم نبتت بجانبه واتخذ اسمها.

✓ **تاورطة**: بئر أوجدها الاستعمار الاسباني بجانبها ضيعة فلاحية يقوم نشطها بالأساس على الزرعات المسقية تطلق في مناطق سوس على المنعرجات، وهناك من يقول إنها تعني الروضة، أي الأرض المخضرة بأنواع النبات،[24] كما وقفنا على كلمة أخرى من نفس الجذر وهي تاوُورْتا جمعه تيوْرْتيوينْ وتطلق على القط البرّي أو ما يصطلح عليه بالوشق، أما في الصحراء فكلمة تاوْرْطَا هي عبارة عن شقوق في الصخور الموجودة في المنخفضات.[25]

✓ **العركوب**: من الآبار التي خلفها الاستعمار الاسباني بالمنطقة وهو اسم مشتق من أطراف الانسان أي العرقوب، وهو وتر يوجد في كعب رجل الإنسان، وصفت به تلك المنطقة تشبيها وسميت به بئرها.

خاتمة

تلعب الآبار دورا أساسيا وتعد من أهم المنشأت التي استأثرت باهتمام الانسان في مجال اتسم بالشح المائي وظل الترحال والبحث عن الماء أكبر انشغالات سكانه. فمنطقة وادي الذهب من المناطق التي تعيش نمطا رعويا قائما على الترحال والبحث عن الماء والكلأ، ولم يكن هذا التنقل خاضعا لحدود جغرافية معينة على امتداد المجال الذي عرف بالندرة المائية. كما تميز الانسان الصحراوي بامتلاكه نمطا خاصا في استنباط الماء وتدبير الآبار، حيث ترجح أن أغلب الآبار بالمنطقة تم حفرها من طرف القبائل المستوطنة للمجال اعتمادا على مقومات محلية.

تغيًا هذا المقال تتبع دلالات وأصول التسميات الآبار في محاولة لفك الغموض ونفض الغبار عن خصوصية علاقة الانسان الصحراوي بمجاله، واتخذ المكون الصنهاجي أنموذجا على هذه العلاقة المتسمة بالاستمرارية، وهو ما يتبدى جليا في المعجم الحساني الذي حفظ تسميات مختلف الأعلام الجغرافية والبشرية المرتبطة بالماء، مما يدل على أن طبونيميا آبار المنطقة عموما مستوحاة من الأعلام الجغرافية والبشرية بالمجال.

الهوامش:

[1]- بيدرو غوميز مورينو، **آبار الصحراء**، ترجمة أحمد صابر، منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 2018، الطبعة الأولى، ص 28.

[2] -حسناء بوتوادي، «**الآبار والحسيان بالصحراء المغربية** »، مركز علم وعمران للدرسات والأبحاث و إحياء التراث الصحراوي، ضمن منشورات موقع الرابطة المحمدية للعلماء. اطلع عليه بتاريخ 10.12.2023 على الموقع الآتي:

https://www.arrabita.ma/blog

[3] -الوزان محمد الحسن، **وصف إفريقيا**، ترجمة : محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، المغرب، ج1، 1982، الطبعة الأولى، ص75.

[4] -مورينو، **آبار الصحراء**، ص 35.

[5]-حسن حفيظي ،**قسمة الماء ببلاد المغرب في العصر الوسيط** ،اعمال ندوة الماء المتملك : الدول القسمة وحق التصرف في الحظ من الماء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش، مطبعة مراكش، 2002، الطبعة الأولى، ص124.

[6] -محمد سبى **الصحراء بعيون إسبانية رحلات واستكشافات1864-1914**، 2017، الطبعة الأولى، ص5.

[7] -مورينو، **آبار الصحراء**، ص 23.

[8] -محمد ابن عزوز حكيم، (مادة البير في الصحراء) ، **معلمة المغرب**، الجزء1، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المناهل، سلا، 2008، ص30.

[9] -أبو عبد الله البكري، **المغرب في ذكر بلاد أفريقية و المغرب**، مكتبة المثنى، بغداد، 1857، الطبعة الأولى، ص163.

[10]- الصنهاجية لغة سكان المنطقة قبل أن تعم اللهجة الحسانية، والقصد أن أثر اللسان الصنهاجي ما زال ظاهرا في اللهجة الحسانية السائدة حاليا بمجال البيضان.

[11] -عائشة الناجم كنتوري لعروسي، **الماء بالمغرب الأقصى من خلال المصادر**، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2016، الطبعة الأولى، صص 104-105.

[12] -Manuel Mulero Clemente, **los Territorios espanoles del sahara y sus grupos Nomadas del siglo**, Las Palmas, 1945, p67.

[13]- Op. cit, p72.

[14]- مقابلة أجريتها سنة 2020 مع الأستاذ بشر بن أحمد بن محمد بن أمبارك بن علي (حيدرة) بن لشگر بن أحمد بن سعيد، ولد بمدينة طرفاية سنة 1932م، توفي بتاريخ 1مارس 2022.

[15] - زينب مبسوط، **الماء والإنسان في الصحراء المغربية الاطلنتية**، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2018، الطبعة الأولى، ص181.

[16] - حسناء بوتوادي، «**الآبار والحسيان بالصحراء المغربية**»، مركز علم وعمران للدرسات والأبحاث وإحياء التراث الصحراوي، ضمن منشورات موقع الرابطة المحمدية للعلماء. اطلع عليه بتاريخ 10.12.2023 على الموقع الآتي:

https://www.arrabita.ma/blog

[17]- حسناء بوتوادي،«**الآبار والحسيان بالصحراء المغربية**»، نفسه.

[18] - **بئر إنزران**: يعد اليوم جماعة قروية تابعة لإقليم وادي الذهب، ومنطقة رعوية وساحلية واعدة.

[19]-محمد بن عزوز بن حكيم، **مادة بئر انزران**، **معلمة المغرب**، **الجزء السادس**، الجمعية المغربية للإنتاج والنشر، مطابع سلا، ص1927.

[20] - **آوسرد**: يعد اليوم جماعة قروية، واسما لعمالة بجهة وادي الذهب، من الصلحاء المدفونين فيه إسحاق بن الفاضل الباركي.

[21] - **اجريفية**: تعد جماعة قروية تابعة لإقليم بوجدور، ومنطقة لها مؤهلات فلاحية ورعوية واعدة.

[22] - الزهرة فعراس، **المجتمع الصحراوي**، **مسالة تدبير الماء بمنطقة بوجدور قبيلة الأنصار أولاد تيدرارين**، مجموعة البحث والدراسات حول الساحل الصحراء، الرباط، 2014، ص43.

✓ [23] - محمد عبد الله بن البخاري، نسخة من كتاب: **الحياة العمر انية لأهل بارك الله**، خزانة المأمون البخاري، بوجدور، ورقة 51.

[24]- إبراهيم بن علي الاسفاني الأقاوي، **القاموس الامازيغي العربي**، تحقيق وتقديم عبد الله خليل، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء،2014، ص485.

[25] -عبد العزيز فعراس، **المعجم الحساني جغرافي بيئي تراثي**، تقديم محمد فتوحي، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2016، ص145.